<u>فى التاريخ الإسلامى</u>

وحى المكيافيلية

فى مصرع البرامكة وأبى مسلم الخراسانى

للأستاذ صلاح الدين الشريف

حركة التاريخ الإنسانى فى اطراد تقدمها وتسلسل حلقاتها ، تطوى معها ألوانا من الأحداث والانقلابات ، تناولت حياة المجتمعات السياسية بضروب من التغيير والتجديد . فكم من الأوضاع الاجتماعيـة تفككت عراها وانحلت روابطها وتداعت تحت أعباء من عيوبها ، وكم من نظم سياسية لم تزل تستحيل وتتقبل وجوه المؤامرة والثورة على مدى الزمن ، حتى اتخذت وضعا ترتضيه عقلية من ثاروا بها وبرموا بجمودها ونقصها ، وتطالبوا المثالية الخلقـة والكمال الأعلى فى إقامتها على أسس جديدة من الحق والعدل والخير ، على غرار ما تصورها لهم مخيلا لهم .

ولقد يكتب الفوز لبعض هذه الفورات الاجتماعية والانقلابات السياسية التى حفلت بها صفحات التاريخ ، فتصبح المحاولات غير المشروعة المستندة فى بادئ أمرها على المؤامرة والانتقاض على السلطان ، نظاما سياسيا مشروعا لا يلوثه بغى ولا يشوبه ظلم أو جور ، وقـد يستوى الأمر لطريدى الأمس وخوارجه فاذا بهم قـد نعتوا بأعظم صفات الإيثار والتضحية وخلعت عليهم ألقاب البطولة والمجد !

وهكذا قامت معارك السلطان والسيادة بين الفـرد والجماعة ، وبين الجماعة الواحدة وغيرها من الجماعات ، بل بين الأفراد بعضهم بعضا ، ولم تكن سبل هؤلاء جميعا إلى أهدافهم تلك ، سوى بوارق من النهزات العارضة تتيحها لهم تطورات الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، فتراهم يقبلون على معالجة الأمر كل بما يمليه عليه وجدانه تارة أو منطقه تارة أخرى . وهكذا ينساق فريق بدافع من الطمع المتقـد وحافز من الجشع الأشر ، ولا ينسى أن يستتر وراء دعوته بستار زائف من نبل القصد وشرف الغاية ، على حين تحتث الفريق الآخر دوافع التضحية النبيلة وتستنهضه حوافز الكرامة القومية والغيرة على الصالح العام ، فهو يعلن عصيانه على الأمر الواقع ، لا بسبيل من الوسائل الملتوية كالكيد والدس والوقيعة ، بل إنه ليجهر بالثورة الدامية وينساق قدما وراء عصيانه وثورته !

ولقد خضع المجتمع الاسلامى بدوره لتلك الحوافز الدافعة التى سلحت الفرد بسلاح التآمر والثورة على جماعتـه ، او سلحت الجماعة واستجاشت سخطها لتقوى على تحطيم شوكة الدكتاتور الطاغية المتحكم فى مصايرها وأقدارها . ولعل الكاتب الفلورنسى الداهية " نيقولا مكيافالى " عندما أوحت إليه مخيلته أن يسطر بيده قواعده الرهيبة فى كتابه " الأمير " لم يكن

يدرى إلا أنه يخطط للانسانيــة وأجيالها المتعاقبة صورا " واقعيــة " من السلوك الاجتماعى مفرغة فى قالب رائع استعان فى صياغته بقوى ذهنه الخصب ، وهو فى هذا لا يعدو مهمة الفيلسوف الذى يحمل صناعة التصوير والتخيل المقــام الأول فى كل ما يتداوله فكره من مبادئ وتعاليم .

وعلى هذا اذا كنا نرى فيما تعاور المجتمع الاسلامى من أحداث السياسة ، وما تتاذف أمره الحاكمة وأصرائه الطامحين من ألوان الخطوب وما خاصة رجل المغامرة والاغتصاب من دسائس ومؤامرات ، اذا كنا نرى فى هــذا كله وفى أبطاله صفات " المكيافيلية " المتطرفة فى وسائلها وغاياتها، فانما تفسير هذا ينحصر فى أن سياسة المؤامرة تنجح حتما وسط كل معترك يحفل بعوامل الطمع والمنافسة والتطاحن ، وأن هذه المبادئ المرونة تجد سبلها الممهدة الى قلب كل أمة وكل طائفة، بل وكل فرد ، لأن الطبيعة البشرية الطامحة المتحفزة قلما تتغير أو تتبدل !

عرف المجتمع الاسلامى إذن لونا من هــذا التآمر المكيافلى يقوم به الخلفاء فى وجه أتباعهم وأعوانهم ، أو يقوم به الحكام والولاة والقادة فى وجه أخصامهم ومنافسيهم ، خشية استئثار هؤلاء بجانب من السلطان والسيادة أو بهما جميعا ، وتمليا لأطماعهم قبل أن يستفحل أمرهم فيطرحون واجب الامتثال والطاعة وتحدثهم أنفسهم بالانتقاض والثورة.

فأبو مسلم الخراسانى كان أحد أبطال الانقلاب السياسى الهائل الذى تغشى المجتمع الاسلامى فى مؤخرات عهد الأمويين ، وكان الزعيم المجلى والرأس المدبرة فى سياسة القضاء على سلطان الأمويين وتدليل أمر الخلافة للعباسيين ، بعــد أن نجح فى بث الدعوة لهم واستنصار المسلمين لجانبهم واستعدائهم على الأمويين .

بيد أن الخليفة المنصور لما استشعر فى خاصة نفسه خطر هــذا الرجل وجلال قدره يستفحلان فى خراسان وما وراءها ، أوجس منه خيفة وبات له الشر لا لسبب جناه الرجل يتعقه موقف الاتهام من الولاء لهم والإخلاص لدعوتهم وهو الذى ثبت قوائم الخــلافة للعباسيين وأسلس لهم زمام الحكم ، ولكن لأن الروح " المكيافلى " الذى تعكسه طبيعة الإيجاس والحــذر فى كل نفس طامحة متوجسة ، دفعت المنصور إلى التآمر على نصيره الأكبر ، فاستدرجه اليه بحيلة أفلح بها فى القضاء عليه ! ومن ثمة كان هذا القتل السياسى الغريب وحيا جديدا للخلفاء والأمراء يمدهم بألوان من التدويم والتبرير ، يتقدمون بها الى رعاياهم ووجوه أقوامهم ، إذا ما حدثتهم أنفسهم بالتآمر على حياة معشر آخرين من خدام الدولة ورجالاتها ، يخشون منهم وهم التطاول إلى مزاحمتهم على سلطانهم حتى ولو كان الخلفاء فى ذلك جدواهمين وحق مخدوعين !

ثم كانت تلك المؤامرة الكبرى التى زلزل لها المجتمع الاسلامى ، وراح ضحيتها رجال عظام أفنوا زهرة العمر وأراقوا ذوب الكد والعزم فى تجلية دولة الرشيد فى أبهى مجالى العز .

والتودد ؛ ولقد انساق الرشيد إلى ارتكابها بذلك الدافع الخداع المرن الذي يبرر له ما يريد استحلال أروع الوسائط في طلب مستكره الغايات وأعلى به دفع المنازعة على حقوق السلطان وتثبيت دعائم الخلافة ؛ وزاد الرشيد على ذلك أمرا كان له في تسويغ قتل جعفر وبدو بدو في أذهان من روعتهم هـذه النكبة الداهمة تنبعث لتعصف ببيت من أمجد بيوتات الدولة وتقتلعه وشيكا من مراكز الحكم والقيادة لتقذف به في مهاوي الدمار والعدم .

وهكذا بدت سياسة التبرير والاعتذار من قوة السخط الذي كان يضطرم في قلوب الناس لعلة الخليفة وخدمته ؛ لما رأوا أتباعه يعبرون على وتر حساس فيوحون إليهم أن في استفحال أمر البرامكة استفحالا للأخطار القومية الفارسية التي كان يعمل لها سرا أولئك الوزراء ، ويمهدون بها للقضاء على القومية العربية الظافرة .

ونحن إذا وازنا بين ما قدمته هذه الأسرة الفارسية العظيمة من روائع الخدم وجلائل المآثر في التنظيم والتشييد والتعمير ، وحكم الدولة حكما عادلا مستنيرا ؛ ثم قارناه بمدى ما يمكن أن يعلق بأشخاص البرامكة من حقيقة تلك الأوهام والشبهات والإشاعات التي كان يدس بها إلى الرشيد خصوم البرامكة وشانئوهم ، وعلى رأسهم آل الربيع ، هان لنا أمر الحكم على الفلك السياسي الماثل في ضوء الظروف السياسية والأدبية التي اكتنفت الرشيد وأعجلت بيده الجبارة إلى البطش بعيون خدامه وفخر دولته وملكه .

كانت سياسة الدولة العباسية تجنح إلى مناهضة الشيعة وتشتيت جموعهم والقضاء على زعمائهم ودعاتهم في غير هوادة أو تكلف ، وكانت تعتمد في تنفيذ هذه السياسة على كثير من الفارسيين الذين قامت على أكتافهم الدعوة العباسية وركنت إليهم حكومة المنصور ومن تلاه من الخلفاء حتى جاء الرشيد الذي استرسل في الاعتماد عليهم ، فاستوزر يحيى بن خالد وجعله الحاكم المتصرف في مهام الدولة جليلها وصغيرها ؛ وساعد يحيى في سياسة الرعية ومعالجة أمورها بنوه جعفر والفضل ومحمد وموسى ، وكلهم كان صاحب عزم وشهامة ، وأخا ذكاء وهمة ورجل إخلاص وولاء . وكان عليهم أن يتابعوا الرشيد في سياسته إزاء الشيعة وأن ينهضوا بدولته نهوضا يحقق أحلام الرشيد العريضة في دنيا السلطان والتغلب . وأن يراعوا شؤون الدولة داخل حدودها بما يجعل شوكة الخليفة هي الغالبة وكلمته هي العليا ، فلم يمض من الزمن إلا أقله حتى أصبحت مرافق الدولة ومقاليد الشؤون العامة والخاصة ومصائر المجتمع الإسلامي في أيدي البرامكة يوجهونها وجهة سليمة مستنيرة . فانتظمت جباية الخراج وزادت موارد الدولة واتسعت رقعتها واستتب الأمن في أنحائها ، وازدهرت التجارة وتوثقت العلائق السياسية والاقتصادية بين المسلمين والفرنجة وذاق الشعب مرافه الحضارة ومناعم العيش ، فنبغ من أفراده نفر جليل من الفقهاء والشعراء والكتاب ابتعثوا للأدب والفقه العربيين نهضة مباركة ألمت بكثير من أسباب الحضارة وأفانين العيش التي كان الناس يحيونها في ذلك الزمان ، واطردت هـذه الحياة الزاهرة

اليانعة طوال حكم البرامكة الذى استمر زهاء قرابة سبعة عشرة عاما لا يعدق الدولة جلالها ويجرى على التدرج قدما فى مدارج الارتقاء والازدهار والسؤدد . بيد أن استئثار أسرة البرامكة بكل أسباب المجد والبذخ والغنى فى مشرق امبراطورية الرشيد ومغربها ، وما كان يلقاه جعفر والفضل وأبوهما يحيا من ضروب الإجلال والتكريم يخصهم بها الرشيد وكثير من آل بيته ، أثار سخط البيوتات الأخرى التى حسدت عليهم هذه المكانة الفذة والشهرة الشامخة ، ورأت فى تهاون الرشيد فى أعدائه ومعاصريهم واستهتاره فرصة مواتية للدس لهم والوقيعة بهم والتآمر بإثارة الشك فيهم عنده . وكان على رأس هؤلاء المنافسين حاجب الرشيد " الفضل ابن الربيع " وهو أحد أخصام البرامكة وصاحب الأثر الأكبر فى إجداء الوشاية فى حقهم وتأليب الخليفة عليهم وانتهائه إلى جمع العزم على قتل جعفر وسجن يحى وأولاده الآخرين الفضل ومحمد وموسى ، ومصادرة جميع أموالهم وتجريدهم من أملاكهم وتشديد النكير عليهم فى محابسهم حتى لقد مات يحيى فى سجنه من فرط ما لاقى من هوان وإذلال ، وأعقبه إلى القبر بعد قليل ابنه الفضل ، وضربت على الباقين الذلة والمسكنة ، إلى أن جاء الأمين ومن بعده المأمون فردا لمن بقى منهم أملاكهم وحقوقهم ، ولكن الأسرة بعد أن فقدت أعاظم رجالها ، لم تقم لها قائمة ، فلقد فدحتها هذه النكبة الماحقة وأورثتها الأفول والزوال . ويجئ دور المؤرخ المحقق ليدرس هذه الوقائع والمقدمات التى تسوقها الرواية التاريخية وإن تناقض رواتها فى كثير من تفاصيل هذه المأساة ، ويحاول أن يصل منها إلى نتيجة يقبلها العقل ويرضاها الضمير ليستشرف للحكم من خلالها على الرشيد .

فالمؤرخون الإسلاميون وعلى رأسهم العلامة " ابن خلدون " يذهبون فى تأويل المأساة إلى تفرد البرامكة بالأمر واستئثارهم بشؤون الجباية وأموال الدولة وعدم خروج درهم من الخزائن دون أمرهم وإذنهم ، حتى لقد كان الرشيد يطلب المبالغ الصغيرة من المال فلا يجدها إلا إذا أجازوها له . ثم كان ذهاب صيتهم وذيوع شهرتهم بين الناس خاصهم وعامتهم عالمهم وجاهلهم ، لما كانوا يغدقونه على الجميع من سوابغ النعم ، وما كانوا يجزلونه لرجال الأدب خاصة من المنح والعطايا ، سببا فى غيرة الخليفة منهم وخوفه على اسمه وأبهته وصيته من أن ينالها ما ينال من جلالها وإشراقها فى أنحاء دولته . ولقد جاءت ثالثة الأثافى لما تحقق الخليفة من إطلاق جعفر لسراح يحى بن عبد الله ، وكان داعية خطيرا من دعاة الشيعة خرج على الخلافة وقام بثورة دامية كبدت الرشيد كثيرا من الأنفس وطائلا من المال حتى أفلحت جهوده فى إخمادها وأسر يحي بن عبد الله زعيمها ، وقد استودعه الخليفة جعفرا وأوصاه بفرض رقابة ساهرة يقظة عليه . فلما علم الخليفة بإطلاق جعفر لسراح يحيى واستمع لوسوسة أعداء البرامكة بدأت خوالج الشك ونوازع الريبة تتملك صدره وتضغط على قلبه وتجعله لا يثق بنوايا البرامكة ، فأخذ يحبس عنهم كثيرا من مظاهر عطفه ورعايته ، وكلما زادت وسوسة آل الربيع وغيرهم للخليفة ، زاد هذا انقباضا عنهم وتحذرا منهم ، ولم تقف

دعاية أعدائهم إلى حد ، بل لقد جاوزت هذا كله إلى أمر أحفظ الخليفة وأرعبه وأثار بلابله ؛ فلقد وقر فى ذهنه ، بوحى حجابه والمحيطين به من رجال البيوتات العربية التى كسفت بيت البرامكة مجدها وجددا ، أن هؤلاء الوزراء يعملون جادين فى سبيل تقوية القومية الفارسية والاتجار بالأمة العربية فى شخص أمير المؤمنين ، حتى يستوى للأعاجم الأمر بعد أن طال استكراه العرب لهم على الرضا بالخضوع والامتثال لأحفاد الغزاة الأول الذين خرجوا من أعماق جزيرة قاحلة ليدمروا حضارة للأكاسرة كانت تطاول حضارة الروم فى ذلك الزمان .

وفى الحق إن شيئا من هذه الوقائع لم يكن من قوة الثبوت وسطوع الحجة بحيث يقض مضجع الخليفة ويضطره أن يحذر هؤلاء الرجال الذين لا يوحى ثبت فضائلهم وما أسلفوه من خدم للخلافة وللامبراطورية العربية ، بما كان يوسوس به أعداؤهم للرشيد ، وإذا كان فى إطلاق سراح يحيى بن عبد الله ما يؤخذ منه شىء عليهم ، فإن أحدا من عقلاء القوم لا يمكن أن يريش سهام الاتهام اعتباطا إليهم ، ولا سيما وأنهم قد ساعدوا الرشيد فى سياسته العدائية للشيعة ولم يؤثر عن واحد منهم أنه ضالع مع أحد دعاتهم أو حازب جماعة منهم ، بل إنها الأوهام المدسوسة جسمت لمخيلة الرشيد حياطة الأخطار به من هؤلاء الذين أصدقوا الخدمة له ولآل بيته ! وليت شعرى أى مظهر من مظاهر " الوهم القومى الفارسى " يمكن أن يجلو للرشيد حقيقة واقعة من تآمر هؤلاء بدولته والدس للخلافة وحشد قوات الفارسيين المادية والأدبية فى واح معينة من الخلافة مثلا ليكونوا طوع أمرهم عند ما يستعدون انتصارهم على أمير المؤمنين وآل بيته ، وهم الوزراء الذين كانوا دوما فى سكناتهم وحركاتهم فى دائرة رقابة الخليفة وتحت سطوته ، لهم من مهام الدولة وشواغلها وسابق إخلاصهم للرشيد وغيرتهم فى إعلاء مجده ومجد دولته ، ما يأخذ عليهم آفاق تفكيرهم جميعا يزاد على هذا أن أكثر مجالسهم التى استفاضت بأخبارها ونوادرها كتب الأدب والتاريخ العربى ، كانت مفتحة الأبواب للكافة يغشونها ، وكان لهم من الأعداء ما يجعلهم لا يجدون ألح فى الرد على تافه وشاياتهم وحقير سعاياتهم ، من إخلاص الخدمة للرشيد وصدق المشورة له ولبيته ، وكانوا فى هذا السبيل دائمى التفانى فى تحقيق ما يسر الرشيد ويرضيه ويزكى دولته ويعليها .

فحيثما طالعنا وجوه المأساة ومقدماتها وسوابقها لا يسوغ لنا العقل إقرارها فى هدى تلك الاشاعات والسعايات التى توسل بها أعداء البرامكة لتحطيم سادتهم والنيل من رائع إخلاصهم وولائهم لأمير المؤمنين ولدولته . ولكننا إذا درسنا وقائع هذه المأساة فى هدى التعاليم المكيافيلية وروحها السارية فى الطبائع البشرية مسرى الدماء فى الأعراق ، وجدنا أن الرشيد فى أخذه بمنطق هذه السياسة الباغية ، قد تكون له أمارة من العذر له تبرر له تعجيله بالقضاء على مجدهم ، وإن كان فى قدرته أن يحطم هذا المجد الأثيل بوسائل أخرى غير القتل والسجن ، إذ لم يكن القتل والسجن وسيلة لأخذ الأبرياء بالأوهام ولا لأكاذيب المشاعة

عنهم ولا سيما والقوم لم يخوضوا غمار مؤامرة يقضون بها على خلافة الرشيد ، فهذه الوسائل الملتوية لا ينذق أمرها إلا فى مجتمع انحط فى أخلاقه وهوت مثله العليا وطرائق تفكيره إلى حضيض مسف . ولم يصل مجتمع الرشيد إلى هذا الدرك قط .

بيد أن المنطق الميكافالى الذى يتمثل فى قولة مقرره الأكبر وواضع قضاياه وأقيسته ، " إن الأمير الذى يريد تثبيت دعائم عرشه ، لابد له فى كثير من الأحيان أن يخالف الذمة والأمانة والمروءة والدين ! " ، هذا المنطق الصريح هو الذى طبع الرشيد ومن سبقه ومن قفاه من الملوك والأمراء والساسة على مدى الأعصار ، فكان التنكر للمعانى الإنسانية السامية نبراسا وهاجا يحفز ساعة العالم إلى توجيه مصاير المجتمع البشرى وجهة باغية تسىء كثيرا الى الحضارة والعمران .

ولكن عصر الشورى والديمقراطيات الذى تخفق أعلامه اليوم على كثير من دول العالم هيأ للرأى العام أن يكون خير حاكم على حكامه وساسته وأصبح المبدأ الميكافالى بمثابة الطفرة الاجتماعية التى تأباها نواميس التوازن الاجتماعى الواجب توافرها فى قوى المجتمع .

وإذا كان لنا أن نستخلص عظة اجتماعية حية من خلال هذه الصفحات المطوية من تاريخ الإسلام فهى أن القوة الغشوم لا تجدى فى تنظيم مرافق الاجتماع البشرى ، فإن تنظيم أحوال أمة لم تقعد نظمها الاجتماعية والسياسية على أساس راكز من الرأى العام الحر المستنير .

صلاح الدين الشريف